الأثر السلبي للعوامل الذاتية على الشاعر الجاهلي

د. رجاء لازم رمضان
الجامعة المستنصرية / كلية التربية الأساسية

المقدمة :

لقد تأثرت نفسية الشاعر الجاهلي بوصفه انساناً واقعياً وشاعراً حساساً بمؤثرات متعددة ادت الى خلق ذات انسانية غير مستقرة ، ذات ايجابية متحدية قوية ، قادرة على المواجهة احياناً ، وذات سلبية ، عاجزة عن المواجهة في حين اخر ... على ان الذات السلبية العاجزة هي موضوع دراستنا في هذا البحث وسنتناولها من خلال استطلاع الحافز وخصوصيته في الشعر في ضوء ما افرزته الطبيعة من حوافز متعلقة بعوامل الحياة . على ان هذه الخصوصية ليست تلك التي تستجيب لها الذات بنوع من التصرف ، بل هي الخصوصية التي تتمثلها الذات باستجابة متميزة بأبعادها الانسانية التي تبلغ ذروتها في عدم قدرة الشاعر وعجزه عن المواجهة

ومن هذه العوامل الذاتية هي :-

1- فقد الاحبة .

2- الشيخوخة والهرم .

3- الموت ومعضلات الحياة .

4- عقدة النقص .

العوامل الذاتية

1- فقد الاحبة :-

الرثاء من الفنون التي وجد فيها الشعراء مجالاً للتعبير عن خلجات قلب حزين ، تتملكه لوعة صادقة وحسرة موجعة ، والرثاء الصادق تعبير مباشر قلما تشوبه الصنعة او التكلف فهو قريب من النفس [1] ، " وسبيل الرخاء ان يكون ظاهر التفجع بين الحسرة ، مخلوطاً بالتلهف والاسف والاستعظام " [2] ، " وعلى شدة الجزع يبني الرثاء " [3] .

---

[1] ينظر : الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه / 195 .

[2] العمدة 2 / 147 .

[3] م. ن 1 / 153 .

فالرثاء الذي هو بكاء الاعزاء من الموتى والتأسي عليهم والتوجع لمصابهم ، يشكل باباً واسعاً من ابواب الشعر الجاهلي وذلك لكثرة المنازعات الجاهلية ، فالحياة الجاهلية كانت حياة موجعة يسقط فيها القتلى ، فيبكي الاهل والاصحاب قتلاهم ويثيرون ببكائهم دموع قبائلهم ويؤججون احزانهم ، وكانت النساء يجتمعن في مناحة ، ويصحب ذلك لطم على الوجوه والصدور بالاكف أو قطع الجلود ويعرف هذا الضرب من الشعر الذي يقال في هذه المناحات بـ (الندب) وقد برعت النساء في هذا الضرب [4] . وهو تعبير عن المأساة التي يصل فيها انفعال الراثي اوجه حتى يتجاوز حده في الالم والحزن .

واذا ما تطلعنا الى الندب فسنجد ان الشواعر قد بززن اقرانهن من الرجال في اكثر الاحيان لرقة شعور المرأة وعدم احتراسها من البكاء واسبال الدمع عند تأثرها بمكروه فضلاً عن فقد المرأة الجاهلية معيلها وحاميها الذي يعني فقده بالنسبة اليها ذلاً مقيماً وهي تعيش في مجتمع القبيلة الذي تحكمه السطوة .

وتتوالى حرقات الالم واناته عبر قصائد الراثيات من شواعر الجاهلية لتعكس صوراً مؤلمة معبرة عن مآتم نسائية معولة لفقد الاحبة ، فهذه سعدى بنت الشمردل الجهنية ترثي اخاها الذي قتله بنو سليم بن منصور رثاءً يطفح باللوعة للمصاب بتفاصيل دقيقة ، وكانت تلك الدقة والتعمق في التعبير كامنة في وعي الشاعرة ، وهي ما ان وجدت منفذاً حتى اطلقت صرختها الباكية بحرقة –:

أمن الحوادث والمنون اروّع — وابيت ليلي كلّه لا اهجعُ
وأبيت مخلية ابكي اسعدا — ولمثله تبكي العيون وتهمعُ
وتبيّن العين الطليحة انها — تبكي من الجزع الدّخيل وتدمعُ
ان الحوادث والمنون كليهما — لا يعتبان ولو بكي من يجزعُ [1]

ولكن يمكننا ان نؤكد أنّ ألم الشاعرة لم يطمس معالم شاعريتها فقد كانت قصيدتها مكثفة في معانيها ...

وكانت الخنساء اشهر من بكت واستبكت في عصر ما قبل الاسلام ، فقد رثت اخويها معاوية وصخراً بشعر تحترق له الافئدة ، وهذا حال المراثي ، قال الاصمعي : " قلت لاعرابي : ما

---

[4] ينظر : الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه / 195 .

[1] الاصمعيات / 101 – 102 . (مخلية) : خالية (تهمع) تسيل دموعها (الطليحة) : المتعبة (الدخيل) : الداخل .

بال المراثي اشرف اشعاركم ؟ قال : لأنا نقولها وقلوبنا محترقة " [2] ، ولذا نجد نار الجزع والحزن في احشاء الخنساء وهي ترثي اخاها [3] ولا تملك إفصاحاً عن حزنها الا بكلمات ملتاعة ولا يبرّد فؤادها حتى الماء الزلال [4] وهذه اللوعة المتقدة في فؤاد الخنساء مما نجدها عند كثير من النساء اللاتي بكين اخوتهن او ابناءهن ، ولكن لا نجد عند اغلبهن المرارة التي الفناها عند سيدة الرثاء العربي الخنساء التي كانت المثل الاعلى في الرثاء [5] . وما من شاعرة جاهلية اجادت الرثاء كأجادتها وذلك من خلال قصائد رثت فيها اخاها صخراً فقد بقيت نائحة عليه السنين الطويلة ، لاطمة الخد ، شاقة الجيب ، متأسية ، تعن لها ذكراه انى ولت وجهها ، فلا تجد من معين الا البكاء ، ولا سبيل الى هدوء النفس الا بافراغ هذا الهم في رثاء اخيها ، فقد استولى عليها الاسى وطال اساها فعبرت عن ألمها بمخاطبة العين ؛ اذ تقول :-

يا عين مالك لا تبكين تسكابا إذ راب دهر وكان الدّهر ريابا

فابكي اخاك لايتام وارملةٍ وابكي اخاك اذا جاورت اجنابا[1]

فكان البكاء والدمع السخين ، اطوع لها واصدق تعبيراً [2] ، ومن هنا كان للحزن العميق دور التوثيب للانتقام ، وتكاد الخنساء ان تكون أنموذجاً لهذا النوع من الرثاء " حيث استوفت كل صور الرثاء ومعطياته وتقاليده القديمة الموروثة " [3] .

لقد اقترن حزن النساء بالبكاء اقتراناً لا نلحظ نظيره في بكاء الرجال " وذلك لانه يتفق في معطياته على رسم الاطر الأولية من قبيل المبالغة في اظهار الجزع " [4] . ولاسيما اذا كانت البنت هي الراثية المفجوعة بوفاة والدها والتي يدمى قلبها حين تخذلها الدموع لان البكاء " لا يكون الا من فضل فاذا اشتد الحزن ذهب البكاء " [5] ، فتلك سلمى بنت المهلهل ترثي اباها بعد ان فقدته ؛ قائلة :-

اعينيّ ان تغن الدموع فأوكفا دماً بارفضاضٍ عند نوح النوائح

الا تبكيان المرتجى عند مشهد يثور مع الفرسان نقع الاباطح

---

[2] العقد الفريد 3 / 288 .
[3] ديوانها / 47 .
[4] م. ن / 94 .
[5] ينظر : الرثاء او جرحات القلوب / 69 .
[1] ديوانها / 148 – 150 .
[2] ينظر : المرأة في الشعر الجاهلي / 488 .
[3] رثاء الابطال في الادب العربي قبل الاسلام / 235 .
[4] دراسات في الادب الجاهلي (البياتي) 1 / 433 .
[5] نهاية الارب 5 / 165 .

عدياً اخا المعروف في كل شتوة وفارسها المهيوب عند التكافح [6]

ومن الصعب ان يبكي الرجل احزانه كالنساء ، وهو يرفض ذلك بقوة واذا بكى فبصمت وهدوء وحكمة احياناً ، وقد يفقده الهم والحزن صبره [1] ، فيغلب عليه النحول والحزن ، يقول متمم عندما فقد اخاه مالكاً :-

ابى الصبر ايات اراها وانني ارى كل حبل بعد حبلك اقطعا
واني متى ما ادع باسمك لا تجب وكنت جديراً ان تجيب وتسمعا
تقول ابنة العمري مالك بعدما اراك قديماً ناعم البال اقرعا
فقلت لها طول الاسى اذ سألتني ولوعة حزن تترك الوجه اسفعا
وفقد بني ام تداعوا فلم اكن خلافهم ان استكين واخشعا[2]

ونار الحزن لفقد الاهل والاحبة من النيران التي يكتوي بها فؤاد المرء ، فلا تستطيع دموع العين ان تطفئها .

ومن الشعراء الجاهليين من تناسى كبرياء الرجولة ولم يجد بأساً من البكاء على احبائه الذين فقدهم ، فتراه ينوح في شعره عليهم ، فكان البكاء من بعض المظاهر التي عبرت عن حزن الشعراء وتأثرهم .

وقد اكثر بعض الشعراء من الحديث عن العين والدموع وغزارتها [3] ، يقول زهير بن جذيمة العبسي يرثي ابنه شاساً :-

سأبكي عليه ان بكيت بعبرة وحق لشاس عبرة حين تسكب
وحزن عليه ما حييت وعولة على مثل ضوء البدر او هو أعجب[4]

وبالرغم من غزارة دموع الشعراء على ابنائهم ، فانهم شعروا بأنها لا تشفي غليلهم ولا تبل صداهم ، فلم يكتفوا بما سكبوه ، فقطعوا العهد على الاستمرار في ديدنهم هذا ، وكأن الشعراء قد اتخذوا من هذا العهد رمزاً للوفاء لابنائهم ، قال الحارث بن عباد في رثاء ابنه بجير الذي قتله المهلهل بن ربيعة:-

ولعمري لأبكين بجيراً ما أتى الماء من رؤوس الجبال

---

[6] المهلهل بن ربيعة / 59 .
[1] ينظر : الرثاء في الشعر الجاهلي / 163 .
[2] مالك ومتمم / 110 – 117 . وينظر : المهلهل بن ربيعة حياته وشعره / 321 – 342 .
[3] ينظر : الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه / 218 .
[4] الاغاني (القاهرة) 11 / 3864 .

حيل من دونه فسحت دموعي بسجال كمثل سح العزالي[1]

وقد يلجأ الشاعر في استعظام المصيبة الى المبالغة في مصابه وذلك باشراك الطبيعة في احزانه ، وهذا ما اتخذه اغلب شعراء ما قبل الاسلام في تهويل المصيبة ، وما كان ذلك الا خزيناً من العواطف كبتت في داخل الشاعر ، فلم يكن امامه سوى اشراك الطبيعة معه ليعبر عن تلك اللوعة وذلك الالم ، وقد يدهش الراثي لبقاء الجبال على حالها والموتى مستقرين في قبورهم والنجوم ملتصقة بأديم السماء عندما يعلن نبأ وفاة المراثي وهو حصن بن حذيفة الغزاري الذي بكاه النابغة الذبياني ؛ قائلاً :-

يقولون حصن ثم تأبى نفوسهم وكيف بحصن والجبال جنوح
ولم تلفظ الارض القبور ولم تزل نجوم السماء والاديم صحيح
فعمّا قليل ثم جاش نعيّه فبات نديّ القوم وهو ينوح[2]

ومن الشعراء من يشرك القوم للبكاء معه ، وكانت قافية قيس بن زهير التي رثى بها حذيفة بن بدر تعبيراً عن المصاب الجماعي للفقيد اذ قال :-

كم فارسٍ يدعى وليس بفارس وعلى الهباءةٍ فارس ذو مصدق
فأبكوا حذيفة لن ترثوا مثله حتى تبيد قبائل لم تخلق [3]

ومن شدة ألم الشاعر يصبح طعم الحياة مرّاً ، ويحس ان من العدل ان يحرم نفسه من المتع التي حرم منها الميت ، ولعل نذرهم ان لا يشربوا ولا يغتسلوا ولا يدّهنوا شعرهم ولا يقربوا النساء ، لم يكن الا تعبيراً عن حزنهم العميق الذي لا يطفئه إلا ادراك الثأر ، وذلك ما يطفح به قول طفيل الغنوي :-

نداماي قد اضحوا تخليت منهم فكيف الذّ الخمر ام كيف اشرب [1]

اما زهير فله ابيات في رثاء هرم بن سنان لا تقل روعة عن ابياته التي مدحه بها لانه في الحالين سواء أكان مادحاً ام راثياً فهي صادرة عن عاطفة صادقة تجاه هرم لانه يمثل قيمة انسانية واخلاقية تجسدت فيها اخلاقيات العربي وشيمه فكان من الطبيعي ان يكون رثاؤه بمستوى مدحه

---

[1] كتاب بكر وتغلب / 61 .
[2] ديوانه / 213 .
[3] ديوانه / 50 .
[1] ديوانه / 18 .

هذا ان لم يتفوق الرثاء على المدح من ناحية العاطفة واظهار الفجيعة والاحساس بالالم لفقد هرم بن سنان عندما قال :-

فآستأثر الدهر الغداة بهم — والدهر يرميني ولا ارمي
لو كان لي قرناً أناضله — ما طاش عند حفيظة سهمي
او كان يعطي النّصف قلت له — أحزرت قسمك فآله عن قسمي
يا دهر قد اكثرت فجعتنا — بسراتنا وقرعت في العظم
وسلبتنا ما لست معقبه — يا دهر ما انصفت في الحكم
أجلت صروفك عن اخي ثقةٍ — حامي الذّمار مخالط الجزم
ينمي الى ميراث والده — كلّ امرئ لأرومةٍ ينمي
- - - — - - -
ولقد علمت على انصلاتك ما — أزرى ولو اكثرت بي عدمي
خلقي برى جسمي وشيبني — جزعي على ما مات من هرم
ان الّرزيئة ما لها مثل — فقدان من ينمي الى الحزم[2]

فزهير يوجه اللوم بهذا الفقد الى الدهر الذي ما انفك يصيبهم بسادتهم الواحد تلو الاخر والشاعر جعل الامر كأنه شخصي بينه وبين الدهر . فالدهر يرميه وهو عاجز عن الرد او الثأر، ثم يتجه الى ما يشبه العتاب لذلك الدهر بقوله (يا دهر ما انصفت في الحكم) .

الا اننا نلمس حالة اخرى عبر الشاعر الجاهلي فيها عن اساه على الفقيد ورسم صوراً رائعة عبر فيها عن اساه عند الديار والقبور ، داعياً لها بالسقايا ، كما في عينية متمم التي رثى بها اخاه [1] ، فضلاً عن وقوفه بها ، وتحيته إياها ، وكان يردّ بلى الاطلال الى الدهر او الزمان ، كما في رائية زهير بن أبي سلمى [2] ؛ فجاءت المعاني صادقة عفوية مجسدة هدفاً وضعه الشاعر نصب عينيه لمعالجة موضوعه .

---

[2] شرح ديوانه / 385 .

[1] يقول متمم :-

سقى الله ارضاً حلّها قبر مالك — ذهاب الغوادي المدجنات فأمرعا

مالك ومتمم / 112 .

[2] يقول زهير :-

لمن الدّيار بقنّة الحجر — اقوين من حجج ومن دهر
لعب الزمان بها وغيرها — بعدي سوافي المور والقطر .

وما من شك في ان التحريض على الثأر " كان اوقع في النفس وابلغ في اثارة حمية القوم ، لان الرجل يأنف ان يظهر امام المرأة بمظهر النكس العاجز " [3] ، وهذا سبب من الاسباب التي ادت بأغلب الشعراء الى التظاهر بالصبر والتجلد في حين انهم في قمة الهلع والدليل على ذلك الابيات التي تحمل الالام الموجعة والتفجع على الفقيد والتي يتخذ فيها الشاعر من النساء قناعاً للتستر ، ولكن حزنه هذا يخيب ظنه فيكسر هذا القناع ليعلنه مباشرة ، يقول الربيع بن زياد العبسي :-

نام الخليّ فما اغمض حار — من سيّئ النبأ الجليل الساري
من مثله تمسي النساء حواسراً — وتقوم معولةً مع الاسحار
من كان مسروراً بمقتل مالك — فليأت نسوتنا بنصف نهار
قد كن يخبأن الوجوه تسترا — واليوم حين بدون للنظار
يجد النساء حواسراً يندبنه — يضربن اوجههن بالاحجار
يخمشن حرات الوجوه على امرئ — سهل الخليقة طيب الاخبار
ما ان ارى في قتله لذوي الحجا — الا المطيّ تشد بالاكوار
ومجنبات ما يذقن عذوفةً — يقذفن بالمهرات والامهار
ومساعراً صدأ الحديد عليهم — فكأنما طلي الوجوه بقار[1]

وفضلاً عن بكاء الجاهليين لقتلاهم ، فأن الشاعر الجاهلي يعدد فضائل القتيل ويبالغ فيها، فالمرثي يبدو في القصيدة شجاعاً كريماً محافظاً على شرف القبيلة وقد خصه الشاعر اجمالاً بكل مظاهر المدح كما لو كان يمدح حياً ، ولكن بأسلوب فيه اسى ولوعة يتناسب مع ما يوحي به الموت من رهبة وفاجعة ، نتأمل ذلك في رثاء النمر بن تولب لاخوته ؛ اذ يقول :-

بين البديّ وبين برقة ضاحك — غوث اللهيف وفارس مقدام
ومقابر بين الرّسيس وعاقل — درست وفيها منجبون كرام
جزعاً جزعت عليهم فدعوتهم — او يسمعون وكيف يدعى الهام
لا تبعدوا وغدا السلام عليكم — وسرى فقد يتفرق الاقوام
فأبيت مسروراً برؤية من ارى — فاذا انتبهت اذا هي الاحلام [2].

شرح ديوانه / 86 .

[3] العصبية القبلية واثرها في الشعر الاموي / 632 .

[1] شعره / 393 – 394 .

ويركز الشعراء دائماً على ابراز صفات الفقيد ، ولاسيما سمة الشجاعة التي حاول الشاعر ان يؤكدها بصيغ مختلفة وربما يعود هذا التركيز في الصفات الى رغبة الراثي في ان ترى مكانة مرثيه واهميته واستحقاقه للحزن والرثاء ، وتجسيد المرثي لتلك الصورة المثلى التي احتلت المكانة العليا في وعي الشاعر . فضلاً عن تلك الدقة في التعبير والتعمق الكامن في وعي الشاعر ما ان وجدت منفذاً حتى برزت مجسدة ردة فعله عندما وضع امام ما كان يحاول تخطيه طيلة حياته ، ومن هنا استمدت هذه الاشعار قوتها معتمدة على قدرة الشاعر على استيعاب هذه الحقيقة والكشف عنها [1] .

ولقد شغل فقد الاحبة جزءاً لا بأس به في شعر دريد بن الصّمة والذي لا يخرج على غيره من شعراء المراثي قبل الاسلام . وكانت بواعث الحزن عنده فقد اخوته جميعاً في حياته ، وكذلك فقد والده وبعض اعمامه في ساحات القتال ، فتفرق دمهم في قبائل العرب " مما اثار في نفسه حسّ الفجيعة والموت وجعله يؤمن بأن قدر القتل قسم لهم ، وكتب عليهم فهم بين قتيل وثائر " [2] ، ولكن الباعث الاكبر والهم الاعظم هو مقتل اخيه عبد الله الذي جعله يتحسر على فقده وينعى فيه البطولة والجود والنجدة ومن اشهرها مرثيته الدالية ، التي يقول فيها :-

دعاني اخي والخيل بيني وبينه ... فلما دعاني لم يجدني بقعددٍ
فجئت اليه والرماح تنوشه ... كوقع الصّياصي في النسيج الممدّد
وكنت كذات البوريعت فاقبلت ... الى جلد من مسك سقّب مقعد
فطاعنت عنه الخيل حتى تنهنهت ... وحتى علاني حالك اللون اسود
فما رمت حتى خرقتني رماحهم ... وغودرت اكبو في القنا المتقصد
قتال امرئ آسى اخاه بنفسه ... ويعلم ان المرء غير مخلد
وغارة بين اليوم والأمس فلتةٍ ... تداركتها ركضاً بسيد عمرّد[3]

---

[2] شعره / 13 . غوث اللهيف : الذي يغيث المضطر او محترق القلب . (الرسيس : الماء) ، (عاقل : (العقل) الحجر والنّهى) ، وينظر شرح ديوان زهير / 385 .

[1] ينظر : البناء الفني للقصيدة العربية/ 63 ، رؤية جديدة لشعرنا القديم / 20 ، الادب العربي بين الجاهلية والاسلام/ 75 .

[2] موسوعة الشعر العربي / 575 .

[3] ديوانه / 48 – 50 .

بقعدد : الجبان ، تنوشه : تناوله ، صيصة : شوكة الحائك ، البو : ولد الناقة ، ريعت : فزعت ، المسك : الجلد ، السقب : الذكر من اولاد الابل ، السيد : الذئب ، عمرد : الطويل .

وكثيراً ما كان الالم يعتصر قلوب الشعراء ويملأ نفوسهم أسى وحزناً اثر لحظات الفراق التي يفرضها الدهر بموت صاحب أو حبيب فينهال الشاعر لوماً وتقريعاً على الدهر ، وكان ذلك دافعاً الى استنفار عاطفة الشاعر التي تتدفق برثاء لأخوة له قاسموه الخير والشر وعايشوه لحظات الفرح والحزن فكيف لا يرثي اصحابه وقد قضوا اياماً طويلة جنبا الى جنب .

2- الشيخوخة والهرم :

كان الاحساس بإدبار الشباب واقبال الشيخوخة وما ينجم عنها من ضعف وسقم وتهافت باعثاً على تفكير المرء بجريان الزمن وتناقص العمر ، لقد ولّد هذا الاحساس شعوراً بالحزن على ما فات من ايام اللهو والاندفاع والقوة . واذا ذهبنا نستجلي قيمته ومكانته عند شعراء ما قبل الاسلام وطرق التعبير عنه في اشعارهم ، فإننا سنظفر بالحقيقة التي تقول " ان العرب ما بكت على شيء في اشعارها كبكائها على الشباب وما بلغت كنهه " [1] .

ومن هنا نستطيع القول ان فقد الشباب عندهم كان يمثل فقد الحياة " وأن الناس ما زالوا يبكون على فقد الشباب في الجاهلية والإسلام ويتأسفون عليه لانه في الحقيقة العيش " [2] .

وما كان يؤلم الجاهلي هو ادراكه ان الشباب الى انتهاء ، فلن يفلت الانسان من قدر الشيخوخة مهما حاول ذلك وهو يعلم ان شيخوخته ستجلب له شقاءً وتعباً لا طاقة به على احتمالهما في حين ان الفتوة تعني الفروسية والشجاعة وتلبية الرغبات [3] ، فالشباب والفتوة قبالة الحياة والشيخوخة والضعف قبالة الموت [4].

وربما عبر الشعراء عن ألمهم من الشيخوخة من خلال احاديثهم عن انصراف النساء عنهم او من خلال فقدهم القوة والفروسية ...

وحسبنا ان تكون حالة (البكاء) احدى قرائن الحزن على الشباب ، والهلع من المشيب ، وكما يرثي الشاعر احب الناس الى نفسه ، فانه اذا شاخ يرثي شبابه ويبكيه ، ولعل اول شاعر رثى شبابه هو عمرو بن قميئة ؛ اذ قال :-

يا لهفّ نفسي على الشباب ولم ... افقد به اذ فقدته أمما

قد كنت في ميعة أسر بها ... أمنع ضيمي وأهبط العصما

---

[1] المستطرف من كل فن مستظرف 2 / 6 .

[2] في ذكاء بكاء الناس على الشباب وجزعهم من المشيب / 94 . وينظر : نهاية الارب / 24 .

[3] ينظر : الفروسية في الشعر الجاهلي / 30 – 32 .

[4] ينظر : مجمع الامثال 2 / 366 .

لا تغبط المرء ان يقال لـه أمسى فلان لأهلـه حكما
ان سره طول عمره فلقد أضحى على الوجه طول ما سلما[1].

ويبدو ان الشعراء ساروا على اثر عمرو بن قميئة ، فقد وقفوا طويلاً عند الشباب وبكوه بكاءً مراً لانه بذهابه تغنى البشاشة ويزول اللهو ويدنوا المرء من الهرم والشيب الذي ينهى عن اللذة وينذر بقرب ختام الرحلة ، فتحسر الشعراء على الشباب وتمنوا رجوعه ، قال سلامة بن جندل :-

أودى الشباب حميداً ذو التعاجيب أودى وذلك شأو غير مطلوب
أودى الشباب الذي مجد عواقبه فيـه نلذّ ولا لذات للشيب
وللشباب اذا دامت بشاشتـه ودّ القلوب من البيض الوعابيب[2].

فالشباب رمز للحياة ولذتها وليس عند الجاهلي لذّة في المشيب ، فالشاعر يكشف عن خوالجه النفسية من خلال قصائده الرائعة التي بكى فيها بكاءً حاراً ، ويبقى الشباب بحد ذاته يعبر عن معنى الخلود ، ولهذا كان وعي الشاعر الجاهلي لقيمة الشباب مجسداً في قصائد تعبر عن عظيم حزن وتأسيً لمفارقته فالمشيب والشيخوخة مشكلة على جانب كبير من الاهمية " لانها ارتبطت في اذهاننا بمعاني التحقيق والانتهاء وفوات الاوان ، والشيخوخة كما يقول اندريه مورا هي الشعور بأنه قد فات الاوان وان اللعبة قد انتهت وان المسرح من الان فصاعداً قد اصبح ملكاً لجيل اخر " [3] ، حيث يجد الانسان نفسه عاجزاً عن تحقيق اية امكانات ، ولهذا يصبح الوجود الانساني في هذه المرحلة متسماً بالجمود والثبات ، تحيط به برودة وكآبة ، لانه يقترن بالخوف من الموت والعجز عن تحقيق الذات . فالحياة والبقاء تعني الفعل ، والفعل مقترن بالشباب لذلك تتجه انظار الشاعر الجاهلي نحو الماضي ، ليبقى خالداً بشبابه الدائم ، وهو ما نستشفه من خلال قصائد لشعراء ما قبل الاسلام .

ان اول انطباع يمكن ان يخلفه الشاعر لدى المتلقي هو التعبير الواضح عن جدلية الذات مع الواقع الذي يؤطر مجمل المشاعر حيث مثل ذلك الانطباع فرصة اقتنصها الشاعر وتمكن من

---

[1] ديوانه / 48 . الامم : الشيء القصد . والامم الشيء القريب المتناول والامم العظيم ، والصغير وهو من الاضداد ، وقد اراد ابن قميئة المعنى الاخير وهو الصغير .

[2] ديوانه / 91 – 93 .

[3] مشكلة الحياة / 188 .

خلالها ان يعبر عن حزنه من الشيخوخة وعلى الرغم من ذلك نرى في ثناياها تعبيراً واضحاً عن مشاعر الخوف التي تمتلك ذات الانسان ، يقول بشر بن ابي خازم :-

قليلاً والشّباب سحاب ريحٍ إذا ولّى فليس له ارتجاع [1]

وتجلى هذا المعنى عند امرئ القيس وهو يعطينا صورة واضحة لما اختلج في نفسه من هواجس وأولها الخوف والقلق من الشيب :-

إن يك شيبي قد علاني وفاتني شبابي وأضحى باطل القول قد صحا
وابليت اثواب الشباب وحسنه وكل جديد سوف يدركه البلى
فلست لمن يبكي الشباب بلائم ولكن اراه بيّن العذر إن بكى[2].

ان الشاعر في ظرف قوله لا يعمد الى نظرية مجردة ولكنه في احساسه يقترب من الواقع فالضعف البدني لدى الشاعر ولد لديه شعوراً بعدم الامان في قضاء حاجاته ، ووجد نفسه عاجزاً عن ان يعين نفسه فنقل هذا الاحساس بصور تكشف لنا عن عمق المعاناة التي يعيشها ، وقد نقل هذا الاحساس النمر بن تولب ؛ اذ قال :-

أصبحت لا يحمل بعضي بعضا أشكو العروق النابيات نبضا
كما تشكى الارحبيّ الغرضا كأنما كان شبابي [قرضا][1].

فالمعمر يحتاج الى من يعينه ويساعده على القيام والحركة ، فهي تجربة شعورية تعبر عن صميم المعاناة في مرحلة العمر المتقدمة . ففي الكثير من الابيات نجد واقعاً ملموساً وهو شعور الشاعر بالحسرة من ضعف جوارحه التي اصبحت عاجزة عن القيام بمهامها وذلك هو محور المعاناة في قول ذي الاصبع العدواني :-

اصبحت شيخاً ارى الشخصين اربعة والشّخص شخصين لمّا مسني الكبر
ما للكواعب يا دهماء قد جعلت تزورّ عني وتطوى دوني الحجر
قد كنت فرّاج ابوابٍ مغلقةٍ ذبّ الرياد اذا ما خولس النظر

---

[1] ديوانه / 112 .

[2] ديوانه / 330 – 335 .

[1] شعره / 70 . (ارحب) : حيّ او موضع تنسب اليه النجائب الارحبية ، ويحتمل ان يكون ارحب فحلاً تنسب اليه النجائب لانها من نسله . (الغرض) : حزام الرجل . وكلمة (قرضاً) في الديوان (فرضاً) وهي خطأ طباعي والتصحيح من الاغاني 19 / 162 . وينظر : ديوان امرئ القيس / 107 .

وما خفت تبريح الحياة كما أرى تضيق ذراعي ان أقوم فالبسا

لا اسمع الصوت حتى استدير له ليلاً وان هو ناغاني به العمر

وكنت امشي على الرّجلين معتدلاً فصرت امشي على ما ينبت الشجر[2].

وفضلاً عن ألم الشاعر المعّمر من قلة نفعه وضيق الاهل والاصحاب به ، يعمد الى ضخ آثار المعاناة النفسية في لحظة الالهام الفني الذي تنتج عنه دقة في رسم الصورة حول الذات التي تعاني من آثار التجربة الموضوعية والنفسية ، يقول عروة :-

أليس ورائي ان ادبّ على العصا فيشمت اعدائي ويسأمني اهلي

رهينة قعر البيت كل عشيّة يطيف بي الولدان اهدج كالرأل[3].

الا ان بعض الشعراء فزعوا من شيخوختهم لانها تقودهم الى الموت الذي هالهم ان يكون هو وسيلتهم الوحيدة للخلاص من معاناة الشيخوخة والآمها ، وتبقى الشيخوخة جرحاً داخلياً في نفس الشاعر ، لانها خطام المنية ونذير الموت [1] . وقد افرد الشعراء للشيب شعراً ربطوا فيه بينه وبين الموت وقالوا انه رسولها ونذيرها [2] .

على ان من ابرز مقطوعات الشكوى من الشيب كانت في شعر دريد بن الصمة ، ففيها تفجع شديد مما آلت اليه حياته وما غدا يواجهه من ضعف وتهافت وفوق ذلك توقعه شبح الموت الذي غدا اقرب اليه من رميه سهم ؛ فهو يقول :-

أصبحت أقذف أهداف المنون كما يرمى الدريئة أدنى فوقة الوتر

في منصف من مدى تسعين من مئة كرمية الكاعب العذراء بالحجر

في منزل نازح م الحي منتبذٍ كمربط العيد ، لا أدعى الى خيرِ

كأنني خرب جزّت قوادمه أو جثة من بغاث في يدي هصر[3].

ولا يخرج الصعاليك عن دائرة هذا الخوف من الهرم الذي يقود الى الموت فكثيراً ما يسلك الشاعر الصعلوك سبيل الشكوى واللوم للزمان تلويحاً ، فهو يحزن من الشيخوخة وما يمر به في نفسه من يأس وذهول فهو كلما ذكر ايام الشباب ، وعهد الصبا هزه منظر الشيب في رأسه هزة عنيفة يصحو على اثرها فتخور عزيمته ويتبدد أمله في الحياة ، ويكاد ابو كبير الهذلي يسجل تفوقاً

---

[2] ديوانه / 33 – 34 .

[3] ديوانه / 114 . (الرال) : فرخ النعام .

[1] ينظر : العقد الفريد 2 / 318 .

[2] ينظر : زهر الاداب 2 / 799 .

[3] ديوانه / 66 . الخرب من الفرس : الشعر المختلف وسط مرفقه ، المنصف : الوسط ، بغاث : صغار الطير . (هصر) : حيوان مفترس .

يجعل من شعره ظاهرة واضحة في مجال الفزع من الشيب فجميع الصور التي رسمها ابو كبير في شعره تشير الى انه كان يشكو من الزمان الذي روعه وافزعه وهو من الشعراء الذين عدوا الشيب نذيراً للموت ، بقوله :-

أزهير هل من شيبة من معدل ام لا سبيل الى الشباب الاول
ام لا سبيل الى الشباب وذكره اشهى اليّ من الرّحيق السّلسل
ذهب الشباب وفات منّي ما مضى ونضا زهير كريهني وتبطّلي
وصحوت عن ذكر الغواني وانتهى عمري وأنكرت الغداة تقتلي[1].

واذا ما انتقلنا الى صور اخرى من صور الخوف من الشيخوخة فأننا سنجد ان الشاعر الجاهلي قد خلط بين مفارقة الشباب ومفارقة النساء له وعزوفهن عنه بعد حلول المشيب وهذه الصور غالباً ما تظهر عند اولئك الشعراء الذين قضوا اياماً مع محبوباتهم ، فكانت تلك الايام محل ذكرى عزيزة على قلوبهم ، فأصبحت متقطعة عنهم يقول علقمة في ذلك :-

اذا شاب رأس المرء او قلّ ماله فليس له من ودّهن نصيب
يردن ثراء المال حيث علمنه وشرخ الشباب عندهن عجيب[2].

فيحس الشاعر بالحزن والقلق ازاء المرأة التي فارقته لما للزمن من تأثير في حياته ومغادرته للشباب . ومثلما كانت المرأة رمزاً متعدد الوجوه ، فأنها تمثل تجربة حقيقية في حياة بعض الشعراء ، وغيابها يشكل لديهم ألماً يشعرهم بانطفاء جذوة الحياة ، ولهذا فان الشاعر يسعى جاهداً لأن يمنحها سمة الخلود الدائم عبر تمسكه بالشباب ، فالاعشى يتألم لضياع شبابه وانصراف حبيبته عنه بعد ان رأت شيبه ، يقول :-

أثوى وقصّر ليلةً ليزوّدا فمضت واخلف من قتيلة موعدا
وارى الغواني حين شبت هجرنني ان لا اكون لهن مثلي أمردا
ان الغواني لا يواصلن امرءاً فقد الشباب وقد يصلن الامردا[3].

3- الموت ومعضلات الحياة :-

الانسان هو المخلوق الوحيد في الطبيعة الذي يشعر بالخوف والرهبة من الموت ، ولا غرابة في ذلك ، فقد جبلت طبيعة الحياة الانسانية على حبّ الحياة والتعلق بها ، والحق ان مشكلة

---

[1] شرح اشعار الهذليين 3 / 1069 – 1070 . الرحيق : صفوة الخمرة . السلسل : الماء العذب .

[2] ديوانه/ 33. وينظر: ديوان امرؤ القيس/ 109 وديوان عبيد بن الابرص/ 107. وديوان عمرو بن شأس/ 102 .

[3] ديوانه / 277 .

الحياة والموت اصبحت امراً اساسياً في فن الفطرة الانسانية (الشعر) . الا ان اكثر العرب قبل الاسلام عامة ، كانوا يدينون بالوثنية المشبعة بروح المادة والواقعية الملموسة ، مما منعهم ان يعللوا الاشياء تعليلاً معنوياً يغلب عليه طابع الروحانية والايمان الغيبي ، لان عقل الجاهلي لا يرى الشعور الداخلي ولا يفهمه الا بمشهد حسي فما زالت في داخله حواجز تتمثل في العادات الفكرية التي انتقلت اليه من البيئة فحجزت عقله عن الانطلاق من أسر المادة فظلت فكرة البعث والنشور تقابل بالسخرية [1] . وبقيت حياته ميداناً للمشاكل المحلية والقبلية ، لا تستطيع ان تتفتح لافاق العقيدة الواضحة والتشريعات الدقيقة والتعاليم العميقة . " مما جعل القلق والخوف من الموت يسيطران على وعي الجاهلي بدرجة كبيرة " [2] ، نتأمل ذلك في دالية طرفة بن العبد التي يقول فيها :-

لعمرك ما أدري وإنّي لا وجل أفي اليوم إقدام المنية أوغد

فإن تك خلفي لا يفتها سواديا وإن تك قدّامي أجدها بمرصد[3].

قدم الشاعر اراءه وخلاصة تفكيره في مشكلة الموت ، بنوع من التعبير الضمني القائم على الاستسلام من دون أي طموح أو أمل بعالم اخر ، فالشاعر لم يعرف اليقين الديني الذي يتخطى المظهر المادي الى نوع من الاحساس الروحاني [1] ، وربما انعكس فقدان هذا الاحساس الايماني في شعر بعض الصعاليك على طبيعة جزعهم من الموت فالشاعر الصعلوك تأبط شراً حين يواجه الموت يكون اكبر خوفه من ان تترك جثته لتنهش منها الضباع والطير ولهذا فأنه يتوعدها بأنها ستنهش سماً ناقعاً وليس لحماً يشبعها من الجوع ، فيقول :-

ولقد علمت لتعدونّ علي شيم كالحسائل

يأكلن اوصلاً ولحماً كالشكاعي غير جادل

---

[1] ينظر : الحياة والموت في الشعر العربي في صدر الاسلام والعصر الاموي / 5 .

[2] الانسان والزمان في الشعر الجاهلي / 10 .

[3] ديوانه / 150 . (الوجل : الخوف) .

[1] لقد اتجه شعراء ما قبل الاسلام اتجاهاً مناقضاً لهذا الاتجاه فكان رثاؤهم لانفسهم يتضمن الحزن والتغني بالفروسية القائمة على ابراز المزايا الذاتية واعطاء نظرة تأمل ذاتي منبثقة عن حيرة النفس امام لغز الموت ، فأتخذ طابع الحكمة في معظم نماذجهم والتأسي في البعض الاخر ، وكذلك وصف الشاعر كيفية موته ودفنه وحال من هم حوله . ينظر : شعر اوس بن حجر ورواته الجاهليين / 403 .

يا طير كلن فإنني سمّ لكنّ وذو دغاول[2].

فطبيعة حياة الصعلكة جعلته على يقين من حدوث هذا الامر وادت الى تمكن هذه الفكرة من وعيه ، فظلت تفرض وجودها على ابعاد هذا النموذج الرثائي [3] .

وما كان ذلك الا خزيناً من العواطف كبتت في داخله ، منعه حزمه واباؤه عن التصريح بها مباشرة ، فجاءت هذه الابيات ومضة عبر من خلالها عما بداخله ، بل انها ترددت في نصوص اخرى له يصف فيها الوحوش التي ستنهش جثته منها قوله :-

فزحزت عنهم او تجئني منيتي بغبراء او عرفاء تغدو الدفائنا
كأني اراها الموت –لا دّردّرها– إذا امكنت انيابها والبراثنا
وقالت لاخرى خلفها وبناتها حتوف تنقّي مخّ من كان واهنا
أخاليج ورّاد على ذي محافل اذا نزعوا مدّوا الدلاء الشواطنا[1].

لقد عبر الشاعر عن مشاعر دفينة ، تنم عن الكثير من المعاني مشوبة بالألم والاسى عما سيكون بعد الموت بل من الموت نفسه . وان احساس الانسان بالزمن يرتبط باحساسه بالفناء ، الذي يزيد من قسوة هذا الاحساس وحدته هو ان الانسان يموت ويبقى بعده الوجود مستمراً .

ويطلق امرؤ القيس لفظة (الهلاك) على الموت امعاناً منه في التعبير عن اساه ولاسيما عندما حانت منيته في دار الغربة فقال في داليته .

فلو أنّي هلكت بدار قومي لقلت الموت حقّ لا خلودا
ولكني هلكت بارض قومٍ بعيد من دياركم بعيدا
اعالج ملك قيصر كلّ يومٍ واجدر بالمنية ان تعودا[2].

وما كان هذا الا خوفاً دفيناً عبر عنه الشاعر وهو يواجه الموت بعيداً عن اهله وديار ، فرسم هذه الصورة الصادقة والنابعة من قلب مليء بالقلق والفزع حتى ان صورة الفزع من الموت لتتردد في اشعار الجاهلية وعلى الشاعر ان يكون مستوعباً ذلك الكم الهائل من الانفعالات

---

[2] ديوانه / 195 . شيم : سود ، الحسائل : جماعة البقر . غير جادل : ليس غليظ . الشكاعي : نبت ، دغاول : دواهي .

[3] ينظر : الطبيعة في الشعر الجاهلي / 301 – 303 .

[1] ديوانه/ 217 . البراثن : من السباع والطير كالاصابع من الانسان والمخلب ظفر البرثن . اخاليج : السريع ، الدلاء: جمع دلو . الشواطنا : الحبال ، زحزحت عنهم : هربت ، الغبراء : انثى الذئب ، عرفاء : الضبع .

[2] ديوانه / 213 .

المختلفة التي وقعت في ذاته وعبر عن خوفه منها ، وان كان بصورة غير مباشرة ، الا ان الموت محتم وما من سبيل الى ردعه .

فالموت مفهوم مجرد حقاً ، ولكنه حقيقة مادية وفعل واقعي ، شأنه في ذلك شأن مفاهيم اخرى مجردة كالخوف من الوحدة ، او التقدم في العمر ، او غيرهما مما يمكن ان يؤثر فينا ونخشاه ، ولكن الخوف يزول باحدى طريقتين إما بالهرب من الخطر واما بالتغلب عليه [1] ...

فاذا طال عمر الانسان وانتفت قسمة الاحساس به ، لذلك ملّ المعمرون عمرهم الطويل، اذا عاشوا غير زمانهم فغادرهم جل ناسهم ، حتى امست حياتهم بلا امل طلبوا الموت النابع من البرم بحياة الهرم ، فأخذ الشعراء يشكون من حياة لم يعد لها قيمة مليئة بالسقم والاوجاع فهذا النمر بن تولب يفصح عن وجعه قائلاً :-

ألا يا ليتني حجر بوادٍ أقام وليت امي لم تلدني
الا يا حاد ويحك لا تلمني ونفسك لا تضفيها ودعني
فاني قد لبست العيش حتى مللت من الحياة فقلت قدني
ولاقيت الخيور وأخطأتني شرور جمّة وعلوت قرني[2].

انها ابيات نابعة من ضجر شاعر ملّ عيشه وسئم حياته واراد الكشف عن الخوالج النفسية التي لا يستجيب لها استجابة مادية المتمثلة بالبكاء .

ويبدو ان هذا وليد لحادث آني حفز الشاعر على اتخاذ هذا الاتجاه المباشر في تناول المعاني مجسدة بحد ذاتها مكانة الشاعر فكان وصفه الصريح نتيجة صادقة لما كان يعانيه ، طارحاً فكرة اتسمت بأهميتها في الحياة العربية .

ومن الشعراء من طال العمر بهم منهم مجمّع بن هلال الذي عبر عن سأمه من العيش ، قائلاً :-

إن أمس شيخاً قد بليت فطالما عمرت ، ولكن لا أرى العيش ينفع
مضت مائة من مولدي فنضيتها وعشر وخمس بعد ذاك وأربع [3].

ومن الطبيعي ان تؤدي مثل هذه الابيات معاني الخوف والقلق التي تنبع في نفس الشاعر فاختلطت فيها الشكوى والألم على ان الشاعر المبتلى بامراض الشيخوخة يستبطئ الموت ويتألم

---

[1] ينظر : قلق الموت / 39 ، القلق بلباس العصر الحاضر / 14 .

[2] شعره / 118 .

[3] المعمرون والوصايا / 41 .

من ضعفه وعجزه ... وذلك ما عبر عنه عبيد ابن الابرص حين وصف الحياة بانها عذاب ، اذ يقول :-

والمرء ما عاش في تكذيب طول الحياة له تعذيب [1].

وكان هذا ناتجاً عن عمق الاتجاه النفسي المستوعب لطبيعة التجربة الانية التي دعت الشاعر الى الخوف وهو على يقين بان الموت مصيره اينما كان وان لا نجاة من منيّة التي يستلم لها خلاصاً من الحياة التي سئمها ومل البقاء فيها .

وان مثل هذه الابيات تحمل في طياتها الحكمة والموعظة ، فقد جاءت الحكمة الجاهلية على قدر كبير من النضج العقلي ، فقد افادوا من خبرة الماضين وشهد بعضهم حياة طويلة حافلة ، رأوا اجيالاً تمضي واخرى تنشأ ، واصابوا من خير الحياة وشرها ، وذاقوا حلوها ومرها ، وكان من هؤلاء الشعراء الجاهليين من نظر واعتبر بالماضين ، وتأمل في مصير الناس وغاية الحياة ، ولجأوا اخيراً الى سبحانه وتعالى ، كما فعل لبيد وزهير ، ومنهم من يقص قصصاً دينياً كأمية ابن ابي الصلت ، ومنهم من يئس وتشاءم وبكى كعدي بن زيد ، ومنهم من انصرف الى الحياة يلهو فيها ويعيش ليومه بل لساعته كطرفة بن العبد [2] .

وليس غريباً ان يبدأ زهير حكمه هذه بالتعبير عن السأم ، والتبرم بأعباء الحياة ، التي ذاقها وخبرها ، وعاش في خضمها ، ثم امتد به العمر فزهدها ، وانصرف عنها ، فجاءت حكمه مشوبة بالالم والتفجع ووليدة لذلك الظرف ، مستمدة من خوفه ، ومعبرة عن الكثير من المعاني العميقة والعواطف المتدفقة اذ يقول :-

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولاً – لا أبالك – يسأم

واعلم ما في اليوم والامس قبله ولكنني عن علم ما في غدٍ عمّ[3].

فمن عاش هذا العمر الطويل ، وخبر الحياة خبرة زهير ، وتكشفت له خفاياها ووقف على مدلولاتها وصراعاتها ، فأنه يملها كما ملها زهير ، الذي ذاق الحياة وبلاها وعرف مكنونها وحقائقها . ولما طال العمر بالمستوغر بن ربيعة وملّ الحياة عبر عن شعور مر تملكه في حياته ورسم فيها الصورة المثلى في تهويل المصيبة ؛ فقال :-

ولقد سئمت من الحياة وطولها وعمرت من عدد السنين مئينا

---

[1] ديوانه / 15 .

[2] ينظر : الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه / 288 .

[3] ديوانه / 30 .

مائة حدتها بعدها مائتان لي وعمرت من عدد الشهور سنينا

هل ما بقي الا كما قد فاتنا يوم يمرّ وليلة تحدونا[1].

فكانت الحكمة ناتجة من ألم الشاعر من الحياة والضيق بها طيلة هذه السنين حتى اطلقها صرخة واحدة معبرة عما كبت في داخله من مواجع ، فجاءت بعد تجربة مهدت لها وضمن تدرج فني ساق الاحداث ليتمركز عندها ... نستشف من ذلك ان الموت والحياة من العوامل والحوافز الذاتية التي لم يستطع الشاعر الجاهلي ان يتغلب عليهما او يواجههما فالقلق والخوف يسيطران عليه .

فالخوف كان ناتجاً من مصيره المجهول بعد الموت . والقلق كان قلقاً من حياته البائسة المليئة بالمآسي .

4- عقدة النقص :-

لا تقتصر الهموم على فئة من الشعراء دون فئة ، بيد ان تأثير الهموم اقوى وكثرتها تترى على من هم اكثر من غيرهم قوة وبأساً وعقلاً ، فكل شيء في الحياة لديهم يصير هماً وقلقاً لحساسيتهم المفرطة ، وتلك الهموم أنائ ما تكون من ذوي النفوس الضعيفة التي لا تجد الا الاستكانة . والشعراء أناس مفرطو الحساسية يستثيرهم ما قد لا يستثير سواهم من الناس ومن هنا فان الاحساس بالنقص كان يدمي قلوبهم ويفجر احساسهم بالألم وهكذا تركت العبودية وسواد اللون في الشعراء السود أثراً سلبياً تمخض عن حالات حزن شديد ومن هؤلاء الشعراء سحيم عبد بني الحسحاس الذي تركت حياته القلقة المضطربة ونظرة المجتمع اليه بوصفه عبداً اسود آثارها ولعل اشد ما كان يرمضه حرمانه من العلاقة الطبيعية بالمرأة ، فيقول :-

فلو كنت ورداً لونه لعشقتي ولكن ربّي شانني بسواديا[1].

ولسحيم في شعره ما يدل على حزنه وألمه لما هو عليه من سواد البشرة [2] ، وان ما ورد في ديوانه من قصائد غزلية يتغنى فيها ببياض بشرة الحبيبة الا محاولة التعويض التي اراد من خلالها ان يعبر عن مأساته وفزعه ومعاناته ..

---

[1] المعمرون والوصايا / 12 . وقال أصحاب الانساب عاش المستوغر (320) سنة ، فادرك الاسلام او كاد يدركه . (لمعمرون والوصايا / 12) .

[1] ديوانه / 26 .

[2] ينظر : ديوانه / 18 ، 27 ، 34 ، 44 .

ولقد عانى السليك من عقدة اللون والسواد الذي اكتسبه من أمه ، فقد كان دائم التعرض للسخرية والاستهزاء مما افقده توازنه الاجتماعي ، فكان يشكو ويتألم لما يصدر من زوجته ومن الناس من استهزاء لسواد لونه ولفقره ، فما كان منه الا ان يقول في داليته :-

هزئت أمامه ان رأت بي رقّةً وفماً به فقم وجلد أسود[3].

وقد عاود الشاعر اعلان ضجره من لونه وفقره وما كان يكبت في داخله من خوالج نفسية ألت الى تحطيم قدرته على مواجهة التحدي المفروض عليه فشكا في مقطوعة له ما تعانيه خالته وبنات جنسه من ضيم وتنقل من مكان الى اخر ، وعبر عن عذابهن وعذابه وعجزه عن انقاذهن لفقره وقلة ماله :-

أشاب الرأس اني كلّ يومٍ ارى لي خالةً وسط الرّحال
يشق عليّ ان يلقين ضيماً ويعجز عن تخلّصهنّ مالي[4].

وان حرمان نعمة البصر عند الاسود بن يعفر آلمه نفسياً وأحس بظلام الحياة وقد كان فيما سبق يهدي الآخرين ويقودهم ، فأسقط معاناته على حسن المقادة ، وفقد توازنه النفسي فعبر عن مللة وقلة صبره ؛ بقوله :-

قد كنت اهدي ولا أهدى فعلمني حسن المقادة اني أفقد البصرا
أمشي واقبع جنّاباً ليهديني إن الجنيبة مما يجشم الغدرا[1].

على ان أعلى مراتب الضجر ان يهجوا الشاعر نفسه وذلك لدمامة خلقته ولقبح شكله من جراء ما يلاقيه من الاستهزاء والسخرية من الآخرين؛ وذلك ما جاء في لامية الحطيئة اذ يقول:

ارى ليّ وجهاً شوّه الله خلقه فقبّح من وجهٍ وقبّح حامله[2].

ومن خلال هذا المنفذ الضيق يستطيع الشاعر ان يؤكد مقدرته على تطويع غرض الهجاء للتعبير عن حزنه وللتعبير عن ذلك الخضم من المعاناة النفسية المتولدة عن طبيعة حياته . ويشتد ألم الحطيئة ذلك الالم الدفين من جراء النسب المتداخل بين القبائل وتعاوده الاحزان فيطلق لسانه في الهجاء المقذع الذي عرف به ، فيقول :-

---

[3] اخباره وشعره / 50 .

[4] م. ن / 62 .

[1] الاسود بن يعفر / 37 . (الجنيب) : الغريب . (جشم الامر وتجشمه أي تكلفه على مشقّة) .

[2] ديوانه / 282 .

تقول لي الضّراء لست لواحدٍ ولا اثنين فانظر كيف شرك اولئكما

وانت امرؤ تبغي أباً قد ضللته هبلت ألمّا تستفيق من ضلالكما[3].

ومن خلال ما قاله الشعراء من ابيات تتعلق بالسأم من عقدة النقص نستطيع القول ان اغلب ما جاء من هذه الابيات كان تعبيراً عن ألمهم من اللون الاسود الذي اصبح لصيقاً بهم وجعلهم يعانون من السخرية والاستهزاء فضلاً عن عقد اخرى تتعلق بالفقر وفقدان البصر ودمامة الشكل والنسب المتداخل وهي عقد نفسية عانى منها الشعراء فجاءت اغلب الابيات شكوى وهجاء نتيجة طبيعية لما يعانونه وما يحسون به من آلام ...

الخاتمة :

انتهى البحث في حدود دراسته على وفق الخطة التي وضعت له ، وعزز ما توصلنا اليه بآراء الباحثين الذين اشاروا الى جوانب كثيرة في الشعر العربي قبل الاسلام من خلال ما طرقه الشعراء معبرين عن حاجتهم التي تشكل ركائز أساسية لعماد حياتهم ، فمن خلال قراءة لاغلب دواوين الشعر الجاهلي وجدنا ...

1- كان بروز ألم الشاعر الجاهلي وحزنه على فقد احبته بنسبة كبيرة جداً ، فقد كان البكاء سلاحاً للتعبير عن حزنه على الميت وان الرجال كانوا اقل حزناً من النساء او بعبارة اخرى انهم لم يحاولوا ان يظهروا حزنهم بصورة مباشرة .

ويعبر الحزين عن أوجاعه بالبكاء الشديد واحياناً تكون الصدمة شديدة عليه فيصاب بالذهول وتجمد عيناه عن البكاء ، أي ان حزن الشاعر قد يكون عنيفاً وقد يكون هادئاً حكيماً .

2- وليس الفارق كبيراً بين حزن الشاعر عند فقد احبته وبين ألم الشاعر من شيخوخته وقد ارتبط حزنه هذا بالشكوى ويبقى ألم الشاعر لمفارقته الشباب امراً حتمياً تفسره حالة البكاء التي تنتابه ، فضلاً عن الذكريات التي التقت ببكاء الشباب الذي ادبر عنه وارتحل دون ان يلقى مثيلاً له حتى عده الشعراء نذيراً للموت ثم كان الشيب داعياً لانصراف الاخرين عنهم لاسيما الحبيبة .

3- لم يستطع الشاعر الجاهلي ان يتغلب على فكرة الموت والحياة او يواجههما ، فالقلق والخوف كانا يسيطران عليه ، فالخوف كان ناتجاً من مصيره المجهول بعد الموت ، والقلق كان قلقاً من حياته البائسة المليئة بالمآسي .

4- وقد عانى الشاعر الجاهلي من عقدة النقص ولاسيما لسواد لونه الذي اصبح لصيقاً به وجعله يعاني من السخرية والاستهزاء فضلاً عن عقد اخرى تتعلق بالفقر وفقدان البصر ودمامة

[3] ديوانه / 276 .

الشكل والنسب المتدخل وهي عقد نفسية عانى منها الشعراء فجاءت اغلب ابياتهم شكوى وهجاء .

فهرست المصادر

* ادب العرب بين الجاهلية والاسلام / د. عبد الحميد محمود مسلوت ، الطبعة الاولى – الجامعة الليبية ، 1973م .
* الاصميعات / ابو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي (ت 216هـ) تحقيق وشرح : احمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ، مطبعة دار المعارف ، بمصر د. ت .
* الاغاني / لابي الفرج علي بن الحسين الاصبهاني (ت 356هـ) ، طبعة دار الفكر ، بيروت ، طبعت اجزاؤه بين 1955 – 1957م .
* الانسان والزمان في الشعر الجاهلي / د. حسين عبد الجليل يوسف ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ، 1988م .
* بكاء الناس على الشيب وجزعهم من المشيب / تحقيق : هلال ناجي ، مجلة المورد ، المجلد الثاني ، العدد الثالث ، 1973م .
* البناء الفني للقصيدة العربية / د. محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الطباعة المحمدية ، القاهرة، د. ت .
* دراسات في الادب الجاهلي / د0 عادل البياتي ، دار النشر المغربية ، الدار البيضاء ، 1986م .
* ديوان الاسود بن يعفر / صنعة د. نوري القيسي ، مطبعة الجمهورية ، بغداد ، 1970م .
* ديوان امرئ القيس / تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار المعارف ، مصر ، سلسلة ذخائر العرب ، 1958م .
* ديوان بشر بن ابي خازم الاسدي / تحقيق د. عزة حسن ، مطبوعات مديرية احياء التراث القديم ، دمشق ، 1960م .
* ديوان تأبط شراً واخباره / جمع وتحقيق : علي ذو الفقار شاكر ، الطبعة الاولى ، 1984م .
* ديوان الحطيئة شرح ابن السكيت والسكري والسجستاني / تحقيق : نعمان امين طه ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده ، مصر ، 1958م .

* ديوان الخنساء / شرحه ثعلب ، ابو العباس ، احمد بن يحيى بن سيار الشيباني النحوي (ت 291هـ) حققه د. انور ابو سويلم ، جامعة مؤتة ، دار عمار ، الطبعة الاولى ، 1409هـ – 1988م .
* ديوان دريد بن الصمة الجشمي / قدم له د. شاكر الفحام ، جمع وتحقيق وشرح محمد خير البقاعي ، دار قتيبة ، 1981م .
* ديوان ذي الاصبع العدواني / تحقيق : عبد الوهاب محمد علي العدواني ومحمد نايف الدليمي، الموصل ، مطبعة الجمهورية ، 1973م .
* ديوان سحيم عبد بني الحسحاس / تحقيق : عبد العزيز الميمني ، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ، 1950م .
* ديوان سلامة بن جندل / رواية الاصمعي وابي عمرو الشيباني تحقيق د. فخر الدين قباوة ، مطبعة الاصيل ، حلب ، الطبعة الاولى ، 1968م .
* ديوان طرفة بن العبد / شرح الأعلم الشنتمري (ت 410هـ) تحقيق : درية الخطيب ، لطفي الصقال ، مطبعة مجمع اللغة العربية بدمشق ، دمشق ، 1395هـ – 1975م .
* ديوان طفيل الغنوي / تحقيق : محمد عبد القادر احمد ، دار الكتب الجديد ، الطبعة الاولى ، 1968م .
* ديوان عبيد بن الابرص / تحقيق وشرح حسين نصار ، مطبعة البابي الحلبي واولاده بمصر، الطبعة الاولى ، 1377هـ – 1957م .
* ديوان عروة بن الورد / شرح ابن السكيت (ت 244هـ) تحقيق : عبد المعين الملوحي ، مطبوعات مديرية احياء التراث القديم ، دمشق ، د. ت .
* ديوان عمرو بن قميئة / شرح وتحقيق : خليل ابراهيم العطية ، سلسلة كتب التراث ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، 1972م .
* ديوان النابغة الذبياني / تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار المعارف ، مصر ، د. ت .
* رثاء الابطال في الادب العربي قبل الاسلام / د. عادل البياتي ، مستلة من مجلة كلية الاداب المستنصرية ، ملحق العدد السادس ، 1982م .
* الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الاسلام / د. بشرى الخطيب ، مطبعة الادارة المحلية ، بغداد ، 1977م .

* الرثاء في الشعر العربي او جرحات القلوب / د. محمود حسن ابو ناجي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ، 1402هـ .
* رؤية جديدة لشعرنا القديم / د. حسن فتح الباب ، دار الحرية للطباعة والتوزيع والنشر ، بيروت ، الطبعة الاولى ، 1984م .
* زهر الاداب وثمر الالباب / لابي اسحق ابراهيم بن علي الحصري القيرواني (ت453هـ) مفصل ومضبوط ومشروح : د. زكي مبارك ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، 1972م .
* شرح اشعار الهذليين / صنعة السكري (ت 275هـ) حققه عبد الستار احمد فراج ، راجعه محمود محمد شاكر ، مكتبة دار العروبة ، مطبعة المدني ، د. ت .
* شرح ديوان زهير بن ابي سلمى / صنعة الامام ابي العباس احمد بن يحيى بن زيد ثعلب (291هـ) ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب سنة 1944م ، الدار القومية للطباعة والنشر ، 1964م .
* شعر اوس بن حجر ورواته الجاهليين / د. محمود عبد الله الجادر ، ساعدت جامعة بغداد على طبعه ، دار الرسالة للطباعة ، بغداد ، 1979م .
* الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه / د. يحيى الجبوري ، دار التربية ، بغداد ، (د. ت) .
* شعر الربيع بن زياد العبسي / صنعة د. عادل البياتي ، مجلة كلية الآداب ، مطبعة المعارف، العدد الرابع عشر ، 1970م .
* شعر عمرو بن شأس الاسدي / تحقيق : د. يحيى الجبوري ، مطبعة الاداب في النجف الاشرف ، 1976م .
* شعر قيس بن زهير / د. عادل البياتي ، مطبعة الاداب ، النجف الاشرف ، د. ت .
* شعر النمر بن تولب / صنعة د. نوري القيسي ، مطبعة المعارف ، بغداد ، د. ت .
* الطبيعة في الشعر الجاهلي / د. نوري القيسي ، دار الارشاد للطباعة والنشر ، بيروت ، 1970م .
* العصبية القبلية وأثرها في الشعر الاموي / د. احسان النص ، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر ، بيروت ، د. ت .
* العقد الفريد / لابن عبد ربه الاندلسي ت (328هـ) تحقيق احمد امين وصاحبيه ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، 1965م.

* العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده / لابن رشيق القيرواني (ت 456هـ) حققه محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل والنشر والتوزيع ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، 1972م .
* الفروسية في الشعر الجاهلي / د. نوري القيسي ، مطابع دار التضامن ، بغداد، 1964م .
* القلق بلباس العصر الحاضر / خير الدين العمري ، شركة اسيا للطبع والنشر المحدودة ، 1987م .
* قلق الموت / د. احمد محمد عبد الخالق ، مطابع الرسالة ، الكويت ، 1987م.
* كتاب بكر وتغلب / لمؤلف مجهول / بمبي ، 1935م .
* مالك ومتمم ابنا نويرة البربوعي / د. ابتسام مرهون الصفار ، مطبعة الارشاد، بغداد ، 1968م .
* مجمع الامثال / الميداني ت 518هـ ، الناشر عبد الرحمن محمد ، مصر ، 1353هـ .
* المرأة في الشعر الجاهلي / د. علي الهاشمي ، مطبعة المعارف ، بغداد ، 1960م .
* المستطرف من كل فن مستظرف / الابشيهي (ت 850هـ،) ، بيروت ، د. ت .
* مشكلة الحياة / د. زكريا ابراهيم ، مكتبة مصر ، 1971م .
* المعمرون والوصايا / لابي حاتم السجستاني (250هـ) تحقيق عبد المنعم عامر ، دار احياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي ، 1961م .
* المهلهل بن ربيعة التغلبي حياته وشعره / دراسة وتحقيق ، نافع منجل شاهين الراجحي ، اطروحة ماجستير ، كلية الآداب ، المستنصرية ، 1986م .
* موسوعة الشعر العربي / اختارها وشرحها مطاوع الصفدي ، ايليا حاوي ، بأشراف د. خليل حاوي ، دار النفائس ، بيروت ، 1974م .
* نهاية الارب في فنون الادب / شهاب الدين النويري (677 – 733هـ) المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ، السفر الثالث ، (د. ت).